

## «طيور» ألفريد هيتشكوك مدرسة لا توصل أبوابها

العالم يتداوى من آلامه باستحضار سينما الرعب والإثارة



الطيور مصدر خوف وموت

أثار هيتشكوك الجدل أينما حل. كان صاحب مدرسة فريدة في الكتابة والإخراج السينمائي وحتى فن التمثيل وكيفية إدارة الممثل الذي قال عنه "لم أكن أقصد أن الممثلين رعا، وإنما يجب التعامل مع الممثل كواحد من الرعا". وعن أجواء الرعب التي تحيط بأفلامه وأوعزها النقاد والمحللون النفسانيون إلى مراحل قاسية من طفولته وتربيته، قال هيتشكوك إن "الطريقة الوحيدة للتخلص من الخوف هي صناعة أفلام هي تلك التي تتجلى في لحظة استيقاظ المرء من كابوس".

الطيور لسيد السينما  
ألفريد هيتشكوك رائعة لا تنساها البشرية

ويروي هيتشكوك مشهداً من طفولته كان له تأثير عميق على اختياراته لمواضيع تلامس سوء المعاملة والعلاقة مع الشرطة، فقد بعته والده وهو دون الخامسة إلى قسم للشرطة مسكاً بورقة توصي عناصر الأمن بسجنه لدقائق من أجل تأديبه لسوء سلوكه، وهو ما فعلوه، فطلت هذه الواقعة مؤشومة في ذاكرة السينمائي المسكون بالرعب والخوف.

أخرج هيتشكوك أكثر من 50 فيلماً روائياً على مدار حياة مهنية امتدت لسنة عقود وقد حصل على جائزة الأوسكار التقديرات والمناهج التعبيرية المتقدمة التي تطورت في السينما الألمانية آنذاك. وفي استطلاع أجرته "الديلي تلغراف" البريطانية عام 2007 اعتبر هيتشكوك أعظم مخرج بريطاني. وحل في المرتبة الأولى في استطلاع لنقاد السينما.

أي نزوة الأحداث وأشدّها دموية ورعباً وتأثيراً في النفوس. وفي هذا الصدد يقول الناقد السينمائي محمد رضا في تقريره من هوليوود منتصف الشهر الجاري، عن تداول أكاديميين ونقاد ومخرجين وأساتذة جامعيين لأفلام هيتشكوك المختلفة؛ عبر 60 سنة، خصوصاً تلك التي حققها من عام 1948 "حبل" وحتى عام 1963 "الطيور"، مروراً بأفلامه الأخرى في هذه الفترة الغريبة من حياته السينمائية. في هذا المنحى يقول رضا "صحيح أن قصة الحب ليست موجودة تحت أي تقاليد محتملة أو معتادة في فيلم 'الطيور'؛ لكن هيتشكوك، وكتابه وربما باستلهام من رواية دو مورييه، يشتغلان على هذا المنحى الدرامي الخالي من حدة التشويق لما قبل نصف مدة الفيلم (119 دقيقة) قبل أن يضع كل شخصياته في أتون من المواجهة والدفاع عن النفس ضد إرهاب الطيور". أسئلة كثيرة يثيرها "الطيور"، وفي منتهى البساطة والتلقائية، على عكس بعض الأفلام التي تعصر المتلقي عصراً، نحو طرح الأسئلة الكسولة، ودفعه إلى تأويل ما هو غير قابل للتأويل. ومن بين هذه الأسئلة البديهية في فيلم الطيور: ما الذي يمكن أن ترمز إليه تلك الطيور؟ لماذا تهاجم البشر؟ هل هناك علاقة بين شخصية ميلاني وبين تلك الطيور، ولماذا بدأت، أصلاً، هجماتهما مع وصول ميلاني إلى البلدة؟

## صناعة الخوف

يجمع النقاد والسينمائيون على كون فيلم "الطيور" كان آخر وأهم مراحل هيتشكوك الإبداعية، إذ جعله مصدر اهتمام كبير لدى دارسي سينما المخرج والمعجبين بهذا الصنف من الأفلام. بدأ هيتشكوك حياته المهنية عام 1919 بكتابة العناوين الفرعية للأفلام الصامتة في أستوديو "لاسكي" بلندن، وهناك تعلم المونتاج وكتابة السيناريو. وفي العام 1920 حصل على وظيفة بدوام كامل في أستوديوهات إيزلغتون وكان يقوم بتصميم عناوين الأفلام الصامتة. وفي العام 1922 صار ألفريد مساعد مخرج عام. وفي العام 1925 قدم أول أفلامه "حديقة المسرات" في ميونخ، وقد تعلم من الألمان الأساليب التعبيرية، وأخلص لها طوال حياته.

ولد ألفريد جوزيف هيتشكوك في 13 أغسطس 1899 بليتونسون في العاصمة البريطانية لندن وتوفي في لوس أنجلوس عام 1980. تلقى تربية كاثوليكية صارمة. كان الطفل الأصغر من بين ثلاثة أطفال لوليام هتشوك (1862 - 1914) الذي كان يعمل بائع دواجن وخضراوات، وإيما جين، وهما من أصول أيرلندية. أسس نموذجاً إخراجياً خاصاً يقوم على استخدام حركة الكاميرا وتاثير اللقطات لاستفزاز أقصى درجات السينما أثناء مشاهدة أفلام هيتشكوك، وذلك إلى أن تحين "لحظة الانقراض"،

ضواحي مدينة سان فرانسيسكو. الناس بدورهم ينظرون إلى الأعلى. لا إلى الكاميرا، فهي ككل شيء آخر في سينما هيتشكوك. أداة وليست رمزاً، بل إلى السماء حيث نكتشف بعد قليل كيف تطير مجموعة من الغربان فوق رؤوسهم.

## لحظة الانقراض

تبدو الأحداث في فيلم "الطيور" وكأنها دراما اجتماعية تصوّر الواقع الإنساني بمنتهى الدقة والشفافية، وتقل مشاعر إنسانية مالوفة كالحب والغيرة والانتقام والتسفي والغيرة في حب التملك مثلما هو الحال لدى أي التي تحب ميتش من طرف واحد. كانت على علاقة وثيقة به؛ لكنها تعتقد الآن أن والدته ليديا هي التي تسببت في إبعادها عنه. تصف لها رد فعلها كلما التقت أي بها، وهو رد الفعل الحذر والبارد ذاته الذي وجهت به ميلاني عندما التقت بأم ميتش للمرة الأولى.

هكذا تبدو الأحداث لدى هيتشكوك خالية من التشويق ومعتادة إلى درجة الملل ثم يطلق عليها رصاصه الرحمة بجعلها خلفية باهتة لوقائع دامية، ذلك أنه يعرف كيف يخفي الصدمة في المكان الذي يبدو بعيداً عن الشكوك.. إنه سيد الصعقات الدرامية وأول من يلفت بآن الواقع ليس على ما توقع غير من التوطن المكاني والعاطفي للأحداث.

وفي هذا الصدد يقول أحد النقاد "فقط هيتشكوك كان يستطيع أن يقدم فيلم رعب كهذا من دون تقديم تبرير شاف للسبب الذي من أجله تحولت هذه الطيور التي تعيش في مدننا كل يوم إلى حيوانات متوحشة". ويضيف "هيتشكوك يدرك كيف يتجاوز السبب عن طريق عدم طرحه أساساً. طبعاً، يتداول الناس في الفيلم افتراضات، لكن المخرج يعرف كيف يرفع من سقف الغموض ويخفض من سقف وضرورة التبريرات".

## توقع المفاجأة وحلول الكارثة هما سيدا الموقف في أفلام ذلك البدن السمين الساخر والمثير للجدل والنفاش

عندما يقع الهجوم الكبير الأول لتلك الطيور الغريبة، ترتفع حدة الفيلم وسرعة إيقاعه لتبلغ قمة تأثيرها. وتكمن قوة أفلام هيتشكوك، دائماً في نصفها الثاني، وكان على المتلقي دائماً، أن يصبر وينتظر على تلك الترابية المتوقفة، حتى أننا كنا صغاراً، نحبز الخزفة

والتهلبي بأكل الفوشار في قاعات السينما أثناء مشاهدة أفلام هيتشكوك، وذلك إلى أن تحين "لحظة الانقراض"،

هذا إلى جانب صعوبات تقنية في التنفيذ، إذ لم يكن مثلاً، من السهل تطويع أسراب الطيور لتتخذ ما في ذهن ألفريد العنيد، على وجه الدقة والتحديد. قد "يمثل" هيتشكوك، في أفلامه، في نوع من "توقيع المعلم"، ولا يمثل كما شاهدناه في فيلم "الطيور"، إذ تصادفه بطلا الفيلم خارجة من أحد محلات بيع الطيور على هيئة رجل قصير وبدن كما هو في الواقع، وكان ذلك على شارع في مدينة سان فرانسيسكو. وكانت ميلاني (تيبى هدرن) تنظر إلى السماء؛ حيث تتكاثر طيور سوداء زاعقة ثم تتلقى بالمحامي ميتش (رود تابلور) الذي سيكون السبب وراء قيام ميلاني بزيارته في بلدته الساحلية الصغيرة. كل شيء يبدو منطقياً، وعلى ما يرام مع وصول ميلاني لزيارة ميتش ووالدته وشقيقته في بلدته بمناسبة عيد ميلاد شقيقته الصغيرة، وسوف يكون عليك انظاراً ما يقارب الساعة قبل ما يعرف في مصطلح السينمائيين بـ"الأثاق"، أي الهجوم المفاجئ، ونقص به هنا الهجوم الفعلي الأول للطيور على البشر.

وفي هذا الأسلوب يقول هيتشكوك "الضربة لا ترعب، ما يرعب هو انتظارها" أما وصيته فكانت "حاول دائماً جعل المشاهدين يعانون قدر ما تستطيع".

الحدث يبدأ من خلال طفلة تلعب لعبة "الغميضة"، وإذ بها تفتح عينها على هذا المشهد المفزع وهي تظن أن أحدهم قد رمى بشيء داكن على رأسها ثم تبدأ المفاجأة في تقنية التناسل وتوليد اللقطات الغامضة والمثيرة، والتي سوف يفكك المشاهد الغازها في مرحلة لاحقة من هذا الفيلم الذي يخطف الألباب.

تبدو الأمور في "الطيور" غاية في الانسجام والحياة الاعتيادية، إلى أن يحدث ما يحدث.. وهذه طريقة هيتشكوك في إنتاج الصدمة، وفلسفته في جعل كل حدث يبدو عادياً إلى أن يأتي ما يخالف ذلك.. وقتها تكتشف أن هذا العبقري السينمائي لا ينظر إلى الأشياء إلا بارتياح وشك شديد.. من قال لك إن المشهد عبارة عن جمعة

أصدقاء، ومجرد أناس عاديين؛ إن توقع المفاجأة المربعة وحلول الكارثة هما سيدا الموقف في أفلام ذلك البدن السمين، الساخر والمثير للجدل والنفاش.

دأب هيتشكوك في معظم أفلامه على النظر من علو شاهق في تقنية تصوير تعتمد الكريهات والشاريوات المرتفعة لتعطي إحساساً مضاعفاً بالخوف وتحقير الكائنات الأرضية، إلا أنه في "الطيور"، تبدو الكاميرا منصبة من علو نسبي على رجال ونساء يمشون في أحد شوارع ضاحية ساحلية من

رغم مرور أربعين عاماً على رحيله، لا يزال اسم المخرج ألفريد هيتشكوك يثير "الرعب" في الأوساط السينمائية، حيث يعد مدرسة لا يمكن أن توصل أبوابها أو تفقد طلابها. أليست السينما فن الإدهاش إلى حد الرعب والفزع وهي تطفئ أنوار القاعات لتدور تلك البكرة التي تأسر العقول وتأخذ الألباب؟

حكيم مرزوقي  
كاتب تونسي



كان ذلك بداية تدافع هوليوود لإنتاج أفلام حول كل شيء تعرفه الحياة المدنية والريفية من مخلوقات مالوفة الحضور وتقلب إلى متوحشة، وكان بداية عودة العالم إلى الخيال المشوب بالخوف والتوجس، غداة انتهاء الحروب وشعور البشرية بنوع من الاطمئنان والهدوء النسبي الذي لا يخلو من مفاجات ما قبل العاصفة.

## توقيع المعلم

اتصل هيتشكوك بـ"سايبو" الذي رشح لأربع جوائز أوسكار عام 1960، جوزف ستيفانو، لكي يشركه في المشروع الجديد؛ لكن ستيفانو لم يتحمس له وقابل المقترح بمنتهى البرود، عندها اتصل بالروائي إيفن هنتر وطلب منه كتابة سيناريو الفيلم.

وفي مطلع شهر نوفمبر عام 1961، أنجز هنتر سيناريو فيلم "الطيور" وأرسله إلى هيتشكوك. بدأ هيتشكوك بالتصوير مع فريق عمله الذي انتقاه بدقة العارف والحريص على إنجاز عمله، ذلك أنه لا يعترف بانصاف الحلول المقبولة، إذ كان يعيد اللفظة الواحدة عشرات من المرات إلى أن تقترب من الكمال في ذهنه.

ومن بين هذه المصاعب في ما يروي النقاد والدارسون والمهتمون بسيرة هذا العبقري، أن بطلا الفيلم تيبى هدرن، التي اختارها المخرج عندما شاهدتها في دعابة تلفزيونية، لم تكن تعرف أي شيء يُذكر عن التمثيل، لذلك كتب هيتشكوك لاحقاً "كل أداء لها، كل لحظة، من صغرى".

وفي ريبط بين كورونا و"طيور" هيتشكوك، انشرت على وسائل التواصل الاجتماعي فيديوهات وصور لطيور مية وأخرى تنازع في أنحاء متعددة من الكرة الأرضية. هذه الفيديوهات أحدثت ذعراً وهدلاً بين الناس، خشية أن يكون فايروس كورونا منتشراً في السماء كما على الأرض، ويقتل الطيور كما يقتل الناس. بل إن بعض الخبراء قالوا إن أحد أسباب قتل هذه الطيور هو تأثير الترددات العالي لشبكة "الواي فاي"، خصوصاً تلك العائدة للجيل الخامس، حتى أصبحت نرى أنفسنا أمام أداء هم أشباح كالكورونا، يتكون بالخلايا البشرية الحية، والترددات العالية التي تفتك بكريبتوكومات الطيور، وتنفذها تحسس الحزم الكهرومغناطيسية الأرضية وتجعلها تضل طريق هجرتها أو حتى طريق عودتها إلى أعشاشها في فصل الربيع.

كذلك، وبشكل أكثر رعباً، كانت الطيور التي هاجمت بلدة سانتا كروز في الشهر الثامن من عام 1961 على ساحل ولاية كاليفورنيا الأمريكية، وبدت في أولها أمراً مالوفاً ويمكن أن يحدث بحكم الطبيعة وعادة التكيف الإنساني، لكن ألفريد نظر إليها بعين المتوجس والمرتاب.

فبعد سلسلة من إعادة النظر في الضفادع والفئران والكلاب والعناكب والديدان وغيرها من الكائنات الحيوانية، تشام صاحب "الطيور" من أمر تلك الطيور التي فقدت قدرتها على الرؤية، فارتطمت بالمباني والنوافذ، ما يعني أن الهجوم لم يكن عن عمد؛ لتقلب فجأة إلى مصدر خوف وموت.

أثارت هذه الحادثة اهتمام هيتشكوك، وتذكر أن لديه حقوق رواية قصيرة كانت الكاتبة الروائية دافني

الضفادع والفئران والكلاب والعناكب والديدان وغيرها من الكائنات الحيوانية، تشام صاحب "الطيور" من أمر تلك الطيور التي فقدت قدرتها على الرؤية، فارتطمت بالمباني والنوافذ، ما يعني أن الهجوم لم يكن عن عمد؛ لتقلب فجأة إلى مصدر خوف وموت.

أثارت هذه الحادثة اهتمام هيتشكوك، وتذكر أن لديه حقوق رواية قصيرة كانت الكاتبة الروائية دافني

